طقوس زيارة الأضرحة في مستغانم، مقاربة أنثروبولوجية

الدكتورة: مناد سميرة*

ملخص:

سوف نبحث في هذه الدراسة عن مختلف الرموز التي ترافق زيارة الأضرحة في مستغانم، هاته الأخيرة التي تشهد تدفقا لمختلف فئات المجتمع المستغانمي، طلبا للبركة، أو تحقيقا للأمنيات، أو حلا المشكلات النفسية والاجتماعية والجنسية، بل إن البعض يعتقد أن كل ضريح يسهم في حل نوع معين من المشكلات.

ما يهمنا هنا هو المعنى الذي يضفيه الممارسون أنفسهم على طقوس الزيارة، وبالغايات التي يرمون إلى تحقيقها، وبالوظائف التي يسندونها إليها، وهذا ما يتيح بدوره فهم هذه الظاهرة من الداخل.

الكلمات المفتاحية: الأضرحة، الطقوس، الثقة، الرموز، المقدس.

Résumé :

Dans cet article, nous examinons les différents symboles qui accompagnent la visite des sanctuaires de Mostaganem, Beaucoup de gens ont recours au sanctuaire pour différences raisons, soit pour avoir de la bénédiction, ou se débarrasser du mauvais œil, ou souhaiter la réalisation des vœux ou la résolution de problèmes psychologiques, sociaux et sexuels. Certains gens pensent que chaque mausolée contribue à résoudre un type particulier de problème.

Ce qui nous préoccupe ici, c'est le sens que les pratiquants eux-mêmes apportent aux rites de la visite, les objectifs qu'ils visent et les fonctions sur lesquelles ils s'appuient, ce qui permet de comprendre ce phénomène de l'intérieur.

Mots clés : sanctuaires, rituels, confiance, symboles, sacrés

تمهيد:

ترتبط زيارة الأضرحة بطقوس ثابتة متمثلة في تقبيل أركان الضريح والطواف بقدمين حافيتين حول التابوت الذي يضم قبر الولي والتمسح بالرداء الذي يوجد فوقه، ثم تقديم الهدية التي تختلف باختلاف الطلب، فهي تبدأ بعودين من الشمع أو بضعة قطع نقدية أو لبوس للتابوت (الغطاء الأخضر)، وقد تصل إلى حد التضحية برأس من الغنم أو الماعز وإقامة الولائم وغيرها. وعليه فهذا المبحث يغوص في الرمزيات التي تجود بها الممارسات التي يقوم بها الافراد في حضرة الضريح.

لقد أكدت الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية وحتى النفسية المتعلقة بالتدين الشعبي على اتساع مجاله، أنه يشمل جملة كبيرة من المعتقدات الممارسة الدينية والطقوس والشعائر ذات المرجعيات المختلفة، منها السحر والأسطورة والدين وحتى التاريخ بما أن بعضها في الأصل عادات وتقاليد اكتسبت – بفعل ثباتها- قداسة وغدت جزءا من المنظومة الرمزية، وتتسم هذه العناصر بالتشتت والانفلات من كل تقعيد وتنظيم.

---

* أستاذة محاضرة، بجامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر.

وعلى أساس ذلك رأت هذه الدراسات أن التدين الشعبي مرتبط بـ" المقدس" أكثر من ارتباطه بالدين الذي لا يمثل إلا بنية ضمن البنى المشكلة للمقدس، ولذلك نرى لزاما علينا أن نبحث في المقدس الشعبي في المجال الإسلامي وفي علاقته بالدين، بافتراضنا أنهما قد شكلا معا ما يمكن تسميته بالحقل الديني الشعبي المتكون من معتقدات وتمثلات دينية ورمزية وممارسات طقسية تمثل بمجموعها رأسمالا رمزيا متعلقا بدائرة المقدس، ومن فاعلين يتوزعون بين مستهلكين للرموز، وهم الفئات الاجتماعية المؤمنة بهذه العقائد والملتزمة بالممارسات الطقسية، ومن منتجين هم المختصون في المقدس والضامنون لإعادة إنتاج الرأسمال الرمزي، ومن رهانات يرمي كل طرف فاعل في هذا الحقل إلى كسبها بواسطة ما يسند إلى الرموز من دلالات ومن وظائف. وإننا نرى أن دراسة هذه العناصر تقتضي دراسة تشكلات المقدس الشعبي ارتباطا بالبعدين الزماني والمكاني المحددين لها في الواقع المعيش، وهي تشكلات متحولة ومتغيرة لا محالة، إلا أنها تركزت في المجال الإسلامي في نظرنا حول محورين رئيسيين هما التعبير الجامع للتدين الشعبي والمعيش"[1].

أولا: عناصر الزيارة

1- النية:

لضمان استجابة الدعوات من قبل الولي يشترط العامة توفر النية الصافية في الولي، وهي ثقة في الاستجابة خالية من كل ريب (ثقة عمياء)، إذ يأتي البعض عاقدا النية الخالصة إيمانا بأن مطلبه سيلبى، فقوة النية هي المحدد الرئيسي لتلبية المطلب، وعلى قدر شدة النية وهمتها تتحقق المطالب المقصودة، وتقضي الحاجيات بناءا عليها، وعادة ما يتم التعبير عن النية بإظهار الرهبة الممزوجة بالخشوع، إضافة إلى قيمة الهدية المهداة وحجم القربان المقدم. ويقر الزائر في وجدانه بوجود مسافة تقدير واعتبار للأولياء الصالحين والأضرحة، فنفسية الأفراد المقبلين على الضريح مبنية على الخوف من أهل المكان (رجال البلاد) بنية قصد، وزيارة رجال البلاد تكون ناقصة لا تحقق مبتغى ولا تحمي من انتقام هؤلاء الرجال من كل شخص جاءهم عابثا أو غير مسلّم أو غير مصدق. فالنية هي التسليم والانقياد التام والثقة العمياء أو العمى الإرادي (aveuglement volontaire). فالكثير من المرضى يعانون من اضطرابات نفسية وعصبية تعرف أحوالهم بعض التحسن نتيجة زيارة الولي، وهذا الإحساس له علاقة بما يسمى النية، أي الاعتقاد الصادق وغير المشروط بنجاعة الطقس المعلوم.

إننا نثق بالطبيب في المستشفى، وبالصيدلي عند صرف الدواء، وفي البنك الذي ندخر فيه أموالنا، وفي صانعي المنتجات التي نستهلكها في حياتنا اليومية، فهل يكفي هذا بأن نؤمن أننا نثق بالغير بعفوية. إن إحساس الثقة هذا الذي نمتلكه إنما هو نتيجة لثقتنا بالمجتمع وبإحساسنا بالأمان بين اللآخرين.

الأمثلة كثيرة على معاملات وتعاملات وسلوكيات وإجراءات يقوم بها كل منا يوميا دون أن يشغل تفكيره قلق أو تخوف من الطرف الآخر، أو شك بأمانته، أو بقدرته ومهارته. فمثلا "الكفيف الذي يمشى في الشارع لا يستطيع أن يخرج من بيته إن لم يكن قد وضع ثقته مسبقا في الجانب الإنساني الإيجابي في الأشخاص الذين سيلتقي بهم في الشارع، والذين سيمدونه بالمساعدة. ثقة أخرى

1-زهية جويرو. الإسلام الشعبي، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، ط1، 2007.ص 10

يمنحها لسائق السيارة الذي يتوقع منه أنه سيضع رجله على المكبح أثناء قطع هذا الكفيف للطريق. غير أن هذا الكفيف ما كان ليخرج إلى الشارع إذا فكر في أن مكابح السيارة قد تكون معطلة، وأن الناس لن يمدوه بيد العون، ولو تخيلنا أن مجموعة من العميان يمسكون بأيدي بعضهم البعض، وفي نهاية المطاف مبصر واحد، وهم يعبرون أرض معركة، فإن الثقة في ذلك البصير هي الطريق إلى سلامة الجميع".[1]

فالثقة هي نوع من الاطمئنان الداخلي المدروس بالآخر، وهو تقدير الفرد لذات الولي سواء كان هذا التقدير مضمرا في نفسه أو معلنا صراحة أمام الجميع، وهذا الاطمئنان لا يتطلب بالضرورة تحقيق المطالب، بل بالرغم من عدم تحقيق المكاسب المرجوة فإن الأمل بتحسين النية في المستقبل وتقويتها هو أهم عنصر في العلاقة بين الفرد ووليه. وكلما كانت الثقة عالية والرضا كاف عند الفرد أصبح ذلك دافعا قويا وايجابيا لتكرار الزيارة والطقوس والدعاء... فالولي هو المبصر الذي يأخذ بأيدي العميان في تفسيرنا لظاهرة الاستمرار في التبرك بالأولياء.

كما أن الأولياء لا يزالون حاضرين بقوة في أذهان الأفراد يلجؤون إليهم بسبب غلاء العلاج بصفة عامة إذ يخلطون بين الطب التقليدي والطب الحديث وذلك ببحثهم عن وسائط وبدائل بقصد الاستشفاء من أمراض استعصت على المستشفيات غير أن هذه الأمكنة عادة ما تحاصر ذوي النيات السيئة وتسمح بمرور ذوي النيات الحسنة وهذا ما دفعني لاستحضار ومحاولة توظيف مفهوم الثقة في الولي والتي تتوافق في نظري مع مفهوم النية الذي يتكرر ذكره في هذه الأماكن المقدسة وحتى في حياتنا اليومية.

2- التقسيم الجندري للأضرحة، الولي الذكر والولية الأنثى:

غالبا ما تصنف ظاهرة زيارة الأضرحة على أنها ظاهرة نسويه بامتياز، بينما يقل وجود النساء على رأس الولاية، فالغالبية العظمى للأولياء هم رجال، من جهة أخرى غالبا ما تختص الولية الأنثى بالخصوبة والإنجاب بينما تمنح للولي الذكر اختصاصات أخرى كثيرة.

3- الاعتقاد والإيمان بالبركة:

تعتبر أضرحة الأولياء والصالحين من بين المعالم الدينية التي تقصد للبحث عن البركة الجالبة للنجاح، والشفاء، والسعادة، والرزق، والهناء... إن الحاجة إلى الاتصال بالروحي وبالمقدس

1- Quere Louis, « La structure cognitive et normative de la confiance », Réseaux 4/ 2001 (no 108), p. 125-152
http://www.cairn.info/revue-reseaux-2001-4-page-125.htm
انظر فيما يخص هذا المثال الذي تطرق اليه "لويس كيري" بالتفصيل في :
QUÉRÉ Louis Modes de locomotion et inscription spatiale des inégalités
Les déplacements des personnes atteintes de handicaps visuels et moteurs dans l'espace public RAPPORT DE RECHERCHE Avril 2001
QUÉRÉ Louis, La confiance, Paris, Hermès-Science, Réseaux (19, 108), 2001, 240 p.

هي دافع للالتجاء للولي وطلب البركة التي لها تأثير قوي في النفوس، من أجل جلب الخير والقوة، وهي لا تكتسب بطريقة مجردة فقط، بل عن طريق وسائل مادية عملية يتوسل بها الإنسان، كالدعاء واللمس واستهلاك أشياء تدخل ضمن المقدس.

"تقع هذه الأضرحة والقبور عادة في المرتفعات لأن الجبال تقدس لأنها قريبة من السماء وبالتالي لأنها تسهل الاتصال بالله. ويقطن النبي جبلا كي يشرف وينبئ ويكتب قداسة".[1] وغالبا ما يرافق الزيارة ألفاظا دينية تعطي هذا الطابع الشعبي التقليدي طابعا دينيا كاستعمال لفظة الصلاة على النبي وترديد أسماء الله الحسنى وغيرها من الألفاظ الممزوجة بالأدعية والطبول والشطحات ترتبط بما يعرف بالجن والشياطين والأرواح والعفاريت، ويعتقد أنه بممارستها يتخلص المريض من مرضه، ويخرج الجن من الجسد الذي يسكنه، ويعتبر الكثيرين التقاليد الدينية المحلية بما تتضمنه من معتقدات وممارسات بعيدة عن تعاليم الدين الإسلامي الصحيح غير أن الأنثروبولوجيين هم أول من اعترف بأهمية هذه الطقوس والعادات المحلية باعتبارها تصورات دينية ذات دلالة ولها علاقة بالواقع الاجتماعي المعاش.

4- الزيارة:

تتمثل أساسا في النية ثم تقديم القدم اليمنى، البسملة، تقبيل الأعتاب ويتوزع الدعاء بين طلب الله وطلب سيدي فلان والزيارة أوقات وأنواع إذ تقول إحدى المبحوثات "عندما أرى الولي في منامي أذهب لزيارته عندما أمر على القبر أضع الزيارة " تدل الزيارة هنا على معنيين أولهما الذهاب للضريح وثانيهما إعطاء مبلغ مالي أو الوفاء بنذر أو إطعام أو غيرها في حضرة الضريح وأداء واجب الزيارة بقطع نقدية أو شموع أو قطعة قماش (لباس الولي) أو طعام وذلك بتحضير قصعة الكُسْكُس المعروفة باسم «المعروف» الذي يوزع على الزائرين والساكنين بمحيط الضريح، والذي يستهلك بالقرب من القبر، أما المظاهر الطبيعية المرافقة للضريح مثل (الأشجار والأحجار والينابيع والمغارات..) فهي ترتبط بشكل حميمي بالضريح. فأصول الارتباط بين الضريح والأشجار والأحجار والينابيع والمغارات ضاربة في القدم، وقد تغيب عن إمكانية إدراكنا لها، ومن خلال بعض الطقوس التي ترتبط بهذه المظاهر الطبيعية المجاورة للضريح زيارته، مثل إشعال الشموع فوق الأحجار والصخور المحيطة به، أو الاغتسال بمياه العيون والوديان المتواجدة بجانبه، أو تعليق بعض الملابس والأقمشة على الأشجار المجاورة له.طقوس يصبح معها كل ما يحيط بالضريح مقدسا اذ يتردد على لسان الكثيرين عبارة "اذهب لطلب الولي لا تدري من أين تأتي الحكمة من الحجر أو الشجر".

ثانيا: أنواع الزيارات

يمكن تصنيف الزيارات حسب الحاجات أو حسب الانتظام الزمني إلى:

- **زيارات الشكوى والمظالم:**

---

1 - زيعور (علي) ، التحليل النفسي للذات العربية، أنماطها السلوكية والأسطورية، دار الطليعة، بيروت ،1982، ص 173.

هنا يمكن استعراض مقابلة أجريناها مع إحدى النساء بسيدي عبد الله بوسط المدينة والتي كانت تنظف الضريح وتكنسه عند قولها "يَا سِيدِي عَبْدْ الله جئتك لأشكي لك فْلَانْ ابْنْ فْلَانْ لم يخف من الله، وَظْلَمْنِي، وَأخذ حَّقِي، وْقد جِئتَكْ حافية باكية وَقد أشْعَلْت لك الشموع وأنرت أرجاءك وَكنستك (حيث أن الطقس المعروف في هذا الضريح هو كنسه بالمكنسة وتنظيفه قصد تحقيق المطالب).
ياَ سِيْدِي أعدك وأعاهدك إذَا أخذت لي حَقِي فإنني سأنظف ضريحك، وأدهنه كله، وألبسك لباسا جديدا، وأخرج الطعام كرامة لك.

- **زيارات المرض وقضاء الحاجة:**

هي زيارات الهدف منها طلب الشفاء من الأمراض أو طلب الذرية والعمل وغيرها من الحاجات." هذا مَاءْ يَقْرأ عْلِيْهْ الشِيْخْ القُرْآنْ وبعض آخذه لولدي لأنه ليس على مايرام فبَعْدْمَا كَانْ يعمل ويساعدنا في المصاريف خَالَطْ جْمَاعَة رفاق منحرفة وأصبح يتناول المخدرات ويتعصب لأتفه الأسباب . نصحتني جاراتي بعدما لم ينفعه لا طبيب ولا طالب بأخذه الى زاوية سِيْدِيْ عَبْدْ اللهْ جَبْتَهْ وأعْطَاهْ الشِيْخْ دواء للشرب وللغسل والان تحسن كثيرا وأنا لا أتوقف عن الزيارة شكرا لسيدي عبد الله"

- **زيارات الشكر:**

هي زيارات تأتي بعد انقضاء الحوائج ونيل المراد كحصول الحمل أو الإنجاب أو الشفاء من المرض ... وهي ضرورية لنيل البركة فيما تحصل عليه الزائر كما في المثال السابق وتقول مبحوثة اخرى "لم انجب مدة سبع سنوات لكن زيارتي لسيدي عبد الله اثمرت ورزقت بولد سميته على اسم الولي الذي أخذت بركته وأنا اليوم أزوره كل يوم خميس وأحضر معي خبزا حلوا أعطيه لكل من ألقاه داخل الضريح ولا يجب الإنقطاع عن الزيارة بعد نيل المراد وإلا فسيزورك الولي في المنام ليذكرك بضرورة زيارته".

أما بحسب الانتظام الزمني ودرجة التردد فيمكن تصنيفها إلى :

- **زيارت عاجلة**:

ويكون الزائر بحاجة إلى حل فوري لمشكل طارئ حدث له فجأة أي ليس من المشاكل اليومية المعروفة. الامتحانات المرض المفاجئ مشكل عائلي طارئ...الخ

- **زيارات دورية:**

يتردد الزائر على الضريح مرة في الأسبوع أو في الشهر أو فصليا أو سنويا.و غالبا ما يخصص يوم للزيارة مثلا كل يوم خميس أو كل يوم جمعة أو أول خميس من كل شهر

- **زيارات غير دورية:**

عدد الزيارات غير محدد والزائر لا يحدد لنفسه يوما محددا للزيارة بل يتردد على الضريح بقصد قضاء حاجة أو ترويح عن النفس أو الحفاظ على علاقته بذلك الضريح ووهي مرتبطة بالمشكل الطارئ أو رؤية الولي في المنام أو غير ذلك من الأسباب التي تقوي علاقة الزائر بوليه.

ثالثا: قدسيات الأشياء

1- قدسية التراب:

اذا كان احد مريض يأخذ من تراب الولي ويمزجه مع زيت الزيتون ويضعه على مكان الألم فهذا طقس استشفائي حسب ما جمعناه من المقابلات الميدانية. كما هو الحال في أحد الاضرحة حيث يشتهر بمعالجته لداء الكلب إذ يمسح بالتراب على مكان الإصابة بعضة الكلب فيشفى المصاب.

" يحمل الإنسان في الحقل الثقافي الإسلامي وعيا دينيا بوصفه حاملا للمجال، يظهر ذلك في المعطى الذي يمتلكه بخصوص تكون الجسم من التراب، على غرار جسد آدم المصنوع من تراب، ومن ثم تصبح الاستمرارية بين حركة الجسم الوجودية بوصفها انبعاثا من(التراب- المجال) الطبيعي وعودة إليه في آخر المطاف. إن حركة الجسم الوجودية هذه من نقطة الانطلاق (المجال) إلى نقطة العودة(المجال)، هي ذاتها تاريخ الجسم كمجال مؤهل لأن يقطنه الإنسان أو الشياطين أو الجن، أو أن يصبح مجالا مهجورا (المجذوب أو المجنون) أما نهاية هذه (الحركة- الموت)، فإنها تحول الجسم إلى مجال.

إن القبر ليس في آخر المطاف سوى جسم ممدد،نائم أو ميت. وفي كل الحالات فإن النوم شبيه بالموت في المعتقدات العربية- الإسلامية، القبر بهذا المعنى لا يعدو أن يكون جسدا مجاليا، ونظرا لكونه كذلك يصبح القبر بشكل خاص والمجال بشكل عام ذاك الأثر الذي يجسد ماضي الإنسان العربي المسلم في صيغة الحاضر، كما يضفي على الحاضر طابعا مستقبليا، إن الإنسان العربي يرى ماضيه حاضرا في المجال مثلما يدفعه هذا الأخير لرؤية مآله المستقبلي."[1]

2- قدسية وبركة الماء:

الماء بجانب الضريح فيه بركة أو قوة روحية تخلص من العكس وسوء الطالع. والماء في المعيش اليومي يسبق الكثير من العبادات والطقوس كالصلاة والطهارة كما أنه يستعمل للعلاج ولرقى المختلفة كماء زمزم الذي يعرف بقوته وقدسيته الكبيرة.يأخذ الماء قدسيته وخصوصياته الاستشفائية من الولي الذي يوجد بالقرب منه وبما أنه هو الذي يبعث الحياة في الطبيعة فإن الأفراد حملوه قيمة دينية وقدسية كبيرة .وهناك بعض الأولياء الذين إرتبطت أسماؤهم بالماء مثل سيدي معزوز البحري وعساسين البحر(حماة البحر).

3- العلم (علام) :

قطعة قماش خضراء اللون يربط بها رأس المريض طلبا للشفاء .

4- الدوران أو الطواف حول القبة :

الطواف خمس أو سبع مرات مع الدعاء خلال الدوران " إن الأعداد كالأشخاص والألوان والأصوات تكسب شخصيتها من ظروف ناشئة عنها ونتائج ناتجة من حولها فنجد الاعداد ثلاثة وسبعة وعشرة واثني عشر وعشرين واربعين وسبعين ومائة وألفا شأنا في التعامل والتفكير البشري أكثر من الأعداد الأخرى"[2].

1- نور الدين الزاهي. المقدّس الإسلامي، دار توبقال للنشر، المغرب –الدار البيضاء، ط1، 2005 ص 39.

2- عبد المالك مرتاض ،عناصر التراث الشعبي في اللاز:دراسة في المعتقدات والعادات الشعبية،د م ج الجزائر،1987 ص 24

" العدد سبعة شديد الحضور في جميع الطقوس الدينية والحكايات الخرافية ولعل مصدر ذلك يتمثل في أن عدد أيام الاسبوع سبعة وقد ورد ذكر هذا العدد في الكتب السماوية والاساطير الانسانية ولعل فكرة الاسبوع وأنه سبعة ايام إلى ما ورد في التوراة والقرآن من أن الله تعالى خلق السماوت والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش في اليوم السابع".[1]

والأصل من إستعمال العدد سبعة (7)، يرجع لما لهذا العدد من الناحية الدينية من حكمة، ففي التراث الاسلامي خلق الله تعالى السماوات سبعا، والأرض سبعا، والأيام سبعا،والطواف سبعا، والسعي بين الصفا المروة سبعا، ورمي الجمار سبع أطوار، وتكبيرات العيدين سبعا وبعث الريح على قوم عاد سبع ليال" وللعدد سبعة شأن غريب عبر الاديان السماوية والوثنية والاساطير والطقوس والفلكلوريات على اختلافها عبر الازمنة فلروما الروابي السبع ولليونان الحكماء السبع وللفضاء الكواكب السبع وللثريا النجوم السبعة وفي المسيحية واليهودية البقر السمان السبع والعجاف السبع وللشمعدان الفاخر سبع أغصان تغرس فيها سبع شموع وفي كل الديانات السماوية الثلاث السبع الموبقات وفي اليهودية والمسيحية المزامير السبع والأسرا السبع والكلمات السبع للمسيح وفي تاريخ الحضارة الانسانية العجائب السبع".[2]

5- **السنجاق (حسب اللهجة المحلية):** عمود من الحديد به علم كبير أخضر اللون ومرسوم عليه نجمة وهلال أحمر يغطى به الرأس والوجه والأطراف وتتلى الدعوات بداخله.

6- **الحزام:**

تترك الزائرة التي لم ترزق بالذرية حزامها داخل القبة طمعا في نيل بركة الولي وحصول الحمل، وهذا شائع في حضرة سيدي منصور ويمكن ممارستها في حضرة أولياء آخرين تقول إحدى المبحوثات: "سيدي منصور مختص في علاج المرأة التي تجهض، يكفي أن تطوف سبع دورات على القبر وتترك حزامها هناك وتأخذ حزاما آخر من عند القائمة على الضريح .

يمثل الحزام **(الفال)**، والفأل هو مجموعة الوقائع والأحداث التي تقع من باب المصادفة قبل أو بعد إقدام شخص على مبادرة ما وقد يكون حسنا أو سيئا وكثيرا ما يربط الزوار ما يعترضهم في حياتهم اليومية بأن هذا مؤشر من عند الولي على الإستمرار في عمل ما أو الانقطاع عنه وتعتبر المقتنيات المأخوذة من الضريح أو من محيطه أو من عند الخديم أو أحد الزوار بمثابة فأل حسن .

رابعا: طقوس أخرى مرتبة بالزيارة:

1- **طقس الشمع:**

كثير من الزوار يشعلون الشموع في ضريح الولي الذي هم حضرته فهناك من النساء من تشعلها داخل القبة وتقوم بالدعاء. والشمعة البيضاء يوقدها الزائر طلبا للخير وللزوج والولد...وأخرى سوداء مطلية بالفحم تستعمل طلبا للضرر مثلا الدعاء على الإبن العاق أو الكنة أو الزوج ...الخ

2- **طقس الزغاريد:**

---

1 - نفس المرجع ص ص 25/24

2 - عبد المالك مرتاض،مرجع سابق ص 25.

تسمى باللهجة المحلية (التولويل) وفي لغة الانثروبولوجيين الصياح القدسي ،أثناء التواجد بالضريح نسمع من حين لآخر زغاريد لنسوة يرافقن زياتهن بالزغاريد ليعبرن عن انفراج همومهن أو حل مشاكلهن وأحيانا تعبيرا عن فرحتهن بخصوص تواجدهن في الضريح.

3- الحج الى الضريح:

الحج إلى مكة لمن استطاع إليه سبيلا، ومن لم يستطع فالبدائل متوفرة. على الأقل هذا ما يعتقده البعض ممن يقصد أضرحة مستغانم، فضريح سيدي لخضر بن خلوف واحد من أضرحة الحج ،وكذلك ضريح سيدي بن ذهيبة رغم اللافتة الموجودة في مدخله والتي تمنع وتحذر من الطواف بالضريح.

إن الطقوس التي تقام في هاذين المقامين تمثيل للموسم الذي ينظم في مكة"، يقول أحد الزوار "ليلة الوقوف في عرفة في مكة نأتي لسيدي لخضر نقف كما يقف الحجاج في عرفة ومن لم يستطع الذهاب لمكة يأتي ليقف هنا عند سيدي لخضر بن خلوف".

4- التضحية:

تتنوع عطاءات الزوار من هدية أو طعام أو نقود، هاته الأخيرة يقدمها الزوار لخادم الضريح أو الخادمة لنيل البركة وقد تكون في شكل قطعة قماش لتجديد لباس الضريح أو ذبح حيوان.

5- المعروف:

غالبا ما تشير كلمة معروف للإطعام أو للوليمة التي يقدمها الفرد للمحتاجين وعابري السبيل عندما ينال مراده في شأن ما أو عندما ينجو من مصيبة ما كحادث سيارة مثلا وتتجاوز وليمة المعروف كونها مجرد مظاهر احتفالية إلى أهداف أخرى تتمثل في إعادة لم شمل العائلة أو العرش وترسيخ الانتماء إليه وهو عدة انواع ويقام لعدة أسباب ومناسبات مثلا معروف الساس عند وضع أساس البيت. ومعروف الحج وهو وليمة يقيمها الشخص الذي ينوي الذهاب ليعتمر أو يحج من أجل توديع أقاربه وأصدقائه ومعروف الحصاد وهو وليمة تقام عند جني المحصول الفلاحي أو حصاد القمح ... الخ

6- طقس الحناء :

"الحناء هي مادة تلوينية قديمة عرفت تاريخيا عند الفراعنة بهذا الاسم، وقد شاع استعمالها في العصر الجاهلي عند العرب، العصر الإسلامي أيضا، وساعد على انتشارها نشاط التجار العرب الذين كانوا يستوردونها من بلاد الهند على شكل صبغة نباتية، ذات لون أحمر وأسود.

بالنسبة للأضرحة فإنه من الشائع كتابة أسماء الزوار وبعض الأدعية والتمنيات بالحناء على جدران الضريح، وذلك من قبيل (إن شاء الله تتزوج فاطمة من علي) و(إن شاء الله ينجح مراد) و(يا رب فرج على خديجة...الخ)

إضافة الى وظيفت الحناء التزيينية والعلاجية فإن لها " وظيفة اجتماعية اذ تعد الحناء دلالة رمزية اجتماعية تميز العروس من قريناتها الأخريات، ويضفي عليها بهاء ورونقا وجمالا،

وبذلك تكون الحناء مظهرا من مظاهر مباهاة المرأة الريفية في ليلة زفافها. من المعلوم أن الحنة هي الليلة التي يتم فيها الاحتفال بتحضير العروس لليلة الزفاف والدخلة، بدءا من الاستحمام وانتهاء بوضع الحنة على يديها ورجليها في طقوس خاصة تقوم بها نساء متخصصات.

و لليلة الحنة عدة مدلولات، اذ تعد ليلة مهمة وفاصلة في حياة كل عروسين، لأنها تحمل في مضمونها كثيرا من المدلولات الاجتماعية والنفسية على حد سواء، إذ يفترض على كل مجتمع إنساني، قبل الزواج، القيام ببعض التدابير التي تحمل سمة احتفالية جمعية، بهدف الإسهام بتهيئة العروسين لليلة مفصلية ومهمة في حياتهما، ألا وهي(ليلة الزفاف) وما يسبقها من مراسم كانت تمتد في الماضي القريب لأيام متتالية، إذ لكل ليلة منها معانيها ومدلولاتها الرمزية الخاصة بها، إذ لم يكن في الماضي يقتصر معنى هذه الليلة (ليلة الحنة) على احتفالات جمعية بوضع الأصباغ على بعض الأنحاء من جسد المرأة كالكفين والقدمين والشعر فحسب، وإنما في الحقيقة كانت تتجاوز مدلولات هذه الليلة الاحتفالية.[1]"

خامسا: الأسماء والألقاب المتصلة بالأولياء

يسمى الذكور على أولياء المنطقة فنجد العديد من الأسماء المنتشرة في مستغانم كإسم بلقاسم الذي يتردد كثيرا نسبة لسيدي بلقاسم وبن ذهيبة نسبة لسيدي بن ذهيبة والشارف نسبة لسيدي الشارف والعجال نسبة لسيدي العجال والمجدوب نسبة لسيدي المجدوب ولخضر وعبد الله وفوغلو وحمو وعفيف و....غيرها فأفراد المجتمع المستغانمي يتبركون ويستبشرون خيرا عند تسمية أبناءهم بإسم الولي.

أما أسماء الإناث نلاحظ تأنيث أسماء الذكور مثلا (ذهيبة) نسبة لسيدي بن ذهيبة و(خضرة) نسبة لسيدي (لخضر ورحمانية) لسيدي عبد الرحمان و(قادية) نسبة لسيدي قادة و(علوية) نسبة للزاوية العلاوية و(خيرة) نسبة للالة خيرة و(هوارية) نسبة لسيدي الهواري وشريفة نسبة لسيدي الشارف ففي خطاب لإحدى المبحوثات حول التسمية المتعلقة بالأولياء تقول: " رزقت بولد بعد زيارتي لسيدي منصور فأسميته منصور هذا الأمر واجب والمخالف له يناله غضب الولي".يدعم هذا الخطاب أيضا التصريح التالي " لعلمك فإن سيدي بختي من الضروري تسمية أبناءنا عليه لأننا جيرانه ومن تناله بركة سيدي بختي من الضروري أن يطلق على أحد ابنائه اسم بختي(اسم ذكر) أو بختة (اسم انثى).كذلك اسم بوعلام يعني "رافع العلم" أو رافع الراية "لعلام" وإضافة "بو" في التراث الشعبي المغاربي تعني "أبو" كما هو معروف لدى الدول المغاربية التي تحذف الألف بداية في بداية الإسم من قبيل "أبو" فيتم نطقها ب "بو"، أي بوعلام . (بوعلام) اسم شائع في التراث الشعبي للمنطقة ورمز للشهامة إذ نجده في الأغاني والأمثال والأهازيج الشعبية المغاربية خصوصا في الجزائر "عبد القادر يا بوعلام ضاق الحال عليا..." (أغنية عالمية مشهورة لمغني الراي للشاب خالد).

---

[1]- كامل عمران عز الدين الدياب، ايفا سليمان خرما." الحنة وظائفها وطقوسها الاجتماعية (دراسة انثروبولوجية في قرية بللوران الساحلية)"، مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، المجلد 33، ع 1، 2011، ص ص 174-173. بتصرف

أما البلديات والدوائر والأحياء والمحلات وغيرها فهي الاخرى تحمل أسماء للأولياء كبلدية سيدي بلعطار، بلدية عين سيدي الشريف، بلدية سيدي علي، دائرة سيدي لخضر أما بالنسبة لتسمية المحلات والأحياء فهي غالبا بهدف جلب الرزق والبركة لذلك المكان .

سادسا: الألوان المنتشرة في الضريح

الأبيض والأخضر هما اللونين اللذين نلاحظهما أثناء تواجدنا بأضرحة مستغانم، إذ يرتدي المريدون في يوم الجمع بالزاوية العلاوية ألبسة بيضاء تعبيرا عن البساطة والوضوح والنقاء والصدق، وكذلك المقدم والخديمة في جميع الأضرحة يرتدون اللون الأبيض، وعادة ما يقدم في حضرة الضريح السكر والحليب والشموع للونها الأبيض.

إن اللون الأبيض يختصر الألوان كلها فهو لا يمثل العدم بل يمثل وعاء لجميع الألوان وفي معيشنا اليومي نجد الأبيض لباسا للعروس ورداءا للميت وثوبا للإحرام بالنسبة للحاج فهو أساس جميع المناسبات الكبرى في حياة الجزائريين اليومية.كما تشير الحمامة البيضاء للسلام ويدل البياض على الصفاء والنقاء والنظافة فيقال قلب فلان أبيض بمعنى نقي.

أما اللون الأخضر فانه مستمد من الخضرة التي تتميز على أنها قرينة الشجرة رمز الحياة والتجدد نخلة كانت أم سدر كما أنها اللون الطاغي في الفردوس وهي في الإسلام من الرموز الدينية الدالة على الدين والعبادة والتقوى وكذا سيدنا الخضر وعلاقته مع ذي القرنين في طلب عين الحياة وأنه وصل إليها بعد رحلته الشاقة وشرب منها ونال الخلود وأصبح كل مكان مرّ به أخضرا".[1]

سابعا: رمزية المغارة

مع أن "المغارة" تشترك مع باقي المجالات الأخرى في عدد من الرمزيات، فإن هناك ما يؤسس لهذا المجال رمزية خاصة أيضا باعتباره ذلك المكان النموذجي لممارسة الخلوة الصوفية. فبتجسيدها لعوالم مختلفة ومتداخلة أيضا، من قبيل: (الظلام، الداخل، المغلق، الانفتاح على الخارج...) فهي قد تؤدي رمزيا دور "الرحم" الذي سيحتضن ذلك المولود الجديد (المبحوث عنه).

في حالة سيدي لخضر بن خلوف مثلا تروي الحكاية الشعبية أنه كان يتعبد في مغارة، في هذا السياق نفهم المغارة كتجسيد لمرحلة" ما قبل الولادة"، مرحلة ما قبل البدء، حيث لا وجود للزمن التاريخي. وإذا ما حاولنا البحث في البعد الزمني الذي قد تكثفه الممارسة الصوفية، فسنجدها تكرس نمطا خاصا من الزمن، من المؤكد أنه " يختلف عن زمن الناس العاديين، فلا مجال هنا لإخضاعه لمقاييس الزمن الخطي .فهو زمن نفسي، زمن باطني يخضع لخلجات الصوفي وشطحاته. "وعبر هذا الإيقاع الخاص للزمن، يحاول المتصوف إذن أن يستعيد- وفي غياهب ذلك "الرحم"- حميمية الأصل، أصل وجوده المتجدد. في هذا السياق الدلالي أيضا يمكن الرجوع إلى قصة (أهل

---

1 - محمد عجينة. موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، دار الفارابي، لبنان، ط1، ج2، 1994 ص ص199-200.

الكهف) كما وردت في القرآن، وكيف أن المغارة يمكن أن تجسد إيقاعا آخر للزمن غير الزمن التاريخي التعاقبي. (القران الكريم) سورة الكهف: من الآية 8 إلى25.

خاتمة:

تتميز مدينة مستغانم بتنوع كبير في الجانب الثقافي يستحيل حصره في دراستنا هذه، فما أدرجناه يعتبر قطرة في بحر، أمام الزخم الاجتماعي والثقافي لهذا المجتمع الذي لا زال بكرا، وينتظر بشغف اقتراب الباحثين بمختلف تخصصاتهم لدراسته والتعمق فيه.

قائمة المراجع :

1. زهية جويرو. الإسلام الشعبي، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، ط1، 2007.
2. زيعور علي، التحليل النفسي للذات العربية، أنماطها السلوكية والأسطورية، دار الطليعة، بيروت ،1982.
3. نور الدين الزاهي. المقدّس الإسلامي، دار توبقال للنشر، المغرب –الدار البيضاء، ط1، 2005.
4. عبد المالك مرتاض ،عناصر التراث الشعبي في اللاز:دراسة في المعتقدات والعادات الشعبية،د م ج الجزائر،1987 .
5. كامل عمران عز الدين الدياب، ايفا سليمان خرما." الحنة وظائفها وطقوسها الاجتماعية (دراسة انثروبولوجية في قرية بللوران الساحلية)"، مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، المجلد 33، ع 1، 2011.
6. محمد عجينة. موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، دار الفارابي، لبنان، ط1، ج2، 1994.
7. QUÉRÉ Louis, « La structure cognitive et normative de la confiance », Réseaux 4/ 2001 (no 108)http://www.cairn.info/revue-reseaux-2001-4-page-125.htm.
8. QUÉRÉ Louis Modes de locomotion et inscription spatiale des inégalités Les déplacements des personnes atteintes de handicaps visuels et moteurs dans l'espace public RAPPORT DE RECHERCHE Avril 2001.
9. QUÉRÉ Louis, La confiance, Paris, Hermès-Science, Réseaux (19, 108), 2001